الطريق من بنجلور إلى ميسور

غابات وأرز وأنـهـار وأنـاس وآلـهـة

■ كان يجب أن نترك الفندق الساعة الثامنة صباحا باتجاه ميسور . وبرغم أن الوفد اليمني كان قد وضع حقائبه قبل ساعتين فقط بعد رحلة طويلة ومجهدة دامت أربعة وعشرين ساعة، إلا أن وهج الهند وأساطيرها وثقافتها وفنونها الحاضرة بقوة في مدارك أهل الشرق جعلتنا في الموعد قبل الآخرين.

انطلقنا من مدينة بنجلور التي لا تعترف بالانطباع الأول .باتجاه الشرق ميممين وجوهنا صوب منطقة مسيور التي كنا نجهل حتى اسمها قبل أن يتطوع أحد أعضاء الوفد المرافق باستعراض تاريخ المنطقة ومعالمها ومميزاتها ومن ثم توزيع بروشور سياحي يتضمن ما يعتقده الهنود مهما.

الهند/ معين النجري

لن تشعر أبدا أنك قد تركت مدينة بنجلور رغم عشرات الكيلومترات التي قطعتها خارج المدينة فالمباني والناس والشجر لن تتركك على طول ٣٠٠كيلو متر تقريبا هي المسافة التي تربط بين المنطقتين.

ربما بعد أكثر من ساعة في طريق سريع ستصبح المنازل أصغر حجما والطريق أكثر أضيق عرضا والناس على الجوانب أقل هنداما، وهذا ما تفرضة طبيعة المجتمع الزراعي على ساكني الارض.

الكثير من الرجال يجلسون على جوانب الطريق أما مشغولين بالاحاديث الثنائية أو يتناولون وجباتهم أو بانتظار شيء ما.

لقد كان البعض يبتسم للوجوه المندهشة والمعلقة على نوافذ الحافلات كانها تدخل الجنة لأول مرة . ربما كان الفلاحون يدركون جيدا سبب هذه الدهشة المفضوحة ولذلك كانوا يرفعون أيديهم بالتحية ويصحبونها بابتسامة رضى وامتنان وشكر لواهب كل هذه النعم . ومثلهم الكثير من الناس كانوا في حالة سير مجد، فالأرض الزراعية بانتظار سواعدهم السمراء .

المرأة الهندية

لا أدري لماذا شعرت بان المرأة الهندية أكثر اجتهادا من الرجل، فعلى طوال الطريق الطويل وأثناء التجوال في المواقع السياحية لم نلحظ امرأة واحدة في حالة سكون، كل النساء كن في حالة حركة دائمة سواء في الحقول الشاسعة أو بجوار منازلهن الصغيرة . كنت أشعر بروح الكفاح تسكن أجسادهن النحيلة رغم الزي التقليدي الذي تحرص الهندية على ارتدائه، وكنت أظنه يعيق حركتها، لقد كنت مخطئاً فالكل يرتدينة ويقمن بأعمالهن كما يجب . إنه ليس زي الرفاهية كما يعتقد البعض أو كما نشاهده في بعض الأفلام، جميع النساء هناك يرتدينه على مختلف الطبقات ... ربما الدين فقط هو الذي يحكم احيانا في بعض الاختلاف من حيث الازياء ويوجب ارتداء أشياء أخرى لكنها ليست بعيدة عن التقاليد أو الثقافة الهندية.

هل أنا منحاز إلى المرأة ؟؟؟ قد أكون . لكن عين الزائر للهند لأول مرة تكتشف كم هي الهندية أكثر أناقة من الرجل أو أكثر اهتماما بلباسها على كل المستويات وفي جميع الحالات . قد يعود ذلك إلى تقديس

المرأة الهندية لزوجها ولذلك فهي تسعى لنيل رضاه في كل الأحوال.

جنة آدم

يقال ان أرض الهند كانت الموطن الأول لأقدام أبينا آدم وأمنا حواء بعد أن طردا من الجنة في قصتهما الشهيرة مع ابليس، و لذلك استقبلت الهند ما حملته اجسادهم من روائح ونعم الجنة.

فعلى مدى الرحلة التي استمرت أربع ساعات ذهابا من بنجلور الى ميسور يفرض اللون الأخضر سلطته المطلقة على الأرض دون منافس . إنه يلغي تماما غيره من الألوان إلى درجة قد تلمسة في خدود الفتيات وأغاني الفلاحين وخلجات قلوب العشاق.

تتحدث به الأرض الهندية بلسان حقول الارز الممتدة لالاف الهتكارات على جوانب الطريق وأشجار جوز الهند التي تقف منتظمة في حقولها في حالة استعداد كطلاب الكليات العسكرية . والغابات الكثيفة التي تغطي التلال والوهاد الى درجة تجعل الزائر يفتقد لون التراب.. كل ذلك تغذيه الأمطار الاستوائية الدائمة والعيون الكثيرة والانهار الغزيرة التي تنبع من كل زاوية حتى لا تكاد الرحلة تتجاوز نهرا إلا ويستقبلها آخر أما العيون فقد كانت مياهها تجري على جوانب الاسفلت في ممرات هيأها لها الفلاح الهندي لأنه أدرك منذ الأزل أن حياته وسعادته وشقاءه مرتبط بهذه المياه ولذلك يحرص على عدم إهدارها فبرغم غنى هذه المناطق بالأمطار والأنهار والعيون الا ان الهنود يعملون من أجل عدم إهدار قطرة ماء واحدة من خلال رصف سواقي الماء وتغطيتها بالاشجار.

مساجد

لا احد يستطيع أن يجزم بالرقم الحقيقي لعدد الديانات الحية في القارة الهندية إذ لا تكاد تستقر على رقم حتى ياتيك آخر برقم جديد يبتعد كثيرا عن سابقه، فهناك من يقول إنها بالمئات، ومعلومات أخرى تضعها في خانة الآلاف وثالثة تقفز بها إلى عشرات الآلاف من الديانات.

لكنك ستجد العناوين الدينية البارزة في الهند تحمل اسم الاهندوسية والإسلامية والمسيحية والبوذية والسيخ.

ورغم هذا التعدد والتناقض بين الأديان السماوية منها والوثنية والوضيعة إلا أن الهند بلد اشتهر قديما وحديثا بالتسامح الديني والتعدد الإيجابي الذي يساعد على بناء المجتمعات لا هدمها.

ساعدهم على هذا التعايش إيمانهم المطلق ببلدهم وأن مصلحة الهند وتطورها وحضارتها قديما ونهضتها حديثا لم يكن لتتحقق لو أن أحدا منهم حاول التعدي على الآخر أو رفضه أو التعامل معه بنفس تمييز ديني أو طائفي أو عرقي أو مناطقي أو حتى تمايز لوني.

إن كل فئة تحترم معتقدات الأخرى ولا تفكر بالاعتداء عليها لأن الخراب سيعم الكل في حال حدث شيء من هذا القبيل، ولذلك حيتنا مأذن المساجد على جوانب الطريق في بعض التجمعات السكنية، كما كانت الكنائس والمعابد المختلفة حاضرة في أماكن كثيرة.

هناك يرتفع الأذان وتدق الأجراس وهناك تسمع الترانيم ومراسيم العبادات بكل حرية ودون خوف أو تخفي.

هناك تحققت حرية الأديان وهناك يؤمن الناس بأن الدين شيء شخصي لا يحق لأحد محاسبة الانسان عليه ولذلك لم أجد خلال الستة الأيام التي قضيتها هناك احدا يخبرني عن ديانته أو يسالني عن ديانتي مثلما يفعل البعض في دول كثيرة . إلا إذا سالته عن ديانته . وأنا لم أكن لافعل إلا حين أتيقن من إسلامه حتى لا اتعرض لنظرة ازدراء . فانا اعرف أن مثل هذا السؤال يدخل في بعض المجتمعات في قائمة الأسئلة المحرمة أو الوقحة.